الأُمِّيَّةُ المُؤَبَّدَةُ: أَزْمَةُ تَلَقٍّ أَمْ أَزْمَةُ ثَقَافَةٍ (الإِسْرائيليات في فَهْمِ القُرآنِ الكَريمِ)

د.ناجي حجلاوي

الجامعة الزّيتونيّة- الجمهورية التونسية

فحوى البحث

ربما يكون عنوان البحث لافتا للنظر بما يتميز به من إحباط يعاني منه السيد الباحث بسبب ديمومة حياة المأثور السلبي في التراث القرآني المتجدد مع العصور والأجيال.

فيطرح مسألة (الاسرائيليات) التي غزت الثقافة القرآنية غزواً عنيفاً منذ الصدر الاول للاسلام وعلى ايدي اناس دخلوا اليه نفاقاً وبقصد تخريبه من الداخل والترويج للفكر اليهودي وإقحامه في تفسير القرآن العظيم الذي برّأه الله –سبحانه–من الخرافة.

وقد اقتبس السيد الباحث آراء كثير من المفسرين والعلماء في دحض الروايات الاسرائيلية بالرغم من أن بعض اولئك المفسرين قد وقعوا في شَرَك ما نعوا به على من رووا الاسرائيليات امثال القرطبي وابن كثير وغيرهم.

توطئة:

تنبع إشكاليّة هذا المقال من التّساؤل التّالي: هل يمثّل تلقّي المسلمين الأوائل للإسرائيليّات أزمة فهم أسّسها الأوائل أم تشكّل أزمة وعي وثقافة كرّسها المتأخّرون تدريجيّا عبر السّيرورة التّاريخيّة؟. و تتزايد أهمية هذا التّساؤل إذا أدرك المرء حجم الأهمية التي تكتسبها هذه المرويات في تشكيل دّوائر الوعي بالدّين و ما يترتب عنها من أنماط التفكير و السلوك.

لّما كان العرب يعيشون قبائل لا يوحّد بينهم إلاّ النّشاط التّجاري والقول الشّعري ولا يجمعهم إلاّ الاستماع إلى المنافرة والمفاخرة وسجع الكهّان، فقد سجّل الخطاب الدّيني غيابه، علما بأنّ هذا الخطاب ينهض بالضّرورة على ما تحدثه المعجزة في النّفوس، "إذ هي ركيزته الأساسيّة"[1].

ولا عجب في غياب هذا الخطاب لأنّ العرب أمّيّون ليسوا بأهل كتاب. وحينئذ كان هذا الأمر بابا مشرعا أمام الأخبار الوافدة من الثّقافات الأخرى السّابقة في التّاريخ على نزول الإسلام من أجل فهم ما يتنزّل من الآيات القرآنيّة ذات الأبعاد الرّمزيّة والإشاريّة. لقد كان هذا الحال في زمن لم تُبن فيه الدّولة الإسلاميّة ولم يشتدّ عودها وتقو مؤسّساتها. وتدريجيّا كثُر الدّسّ والوضع كردّة فعل أمام تعاظم القوّة الإسلاميّة المتمثّلة في السّلطة الماديّة والعسكريّة. واتّخذت المعركة وجهة ثقافيّة، ولقد تشعّب الأمر حين وُجدت أحاديث تدعو إلى الحياد إزاء هذه الظّاهرة التّي تُسمّى بالإسرائيليّات بدعوى الخشية من تكذيب ما يُمكن أن يكون صحيحا وتصحيح ما يُمكن أن يكون كذبا. وفي هذا الصّدد يروى أنّ الرّسول قال: "لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذّبوهم وقولوا: آمنّا بالله وما أُنزل إلينا"[2]. والّذي يلفت الدّارس أنّ العقل السّليم لا يستسيغ

(١) وحيد السّعفي، في قراءة الخطاب الدّيني، نجمة الدّراسات والنّشر والتّوزيع، تونس، ٢٠٠٨، ص ١٣.

(٢) صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، كتاب تفسير القرآن، باب قولوا آمنّا بالله وما أنزل إلينا، حديث عدد ٤٤٨٥، المنصورة، مكتبة الإيمان، طبعة جديدة ومنقّحة، ٢٠٠٣، ص ٩٢٦.

بسهولة أنّ رسولا مكلّفا بتبليغ رسالة جديدة يقف هذا الموقف المحايد البارد من مرويّات تنساب من شريعة سابقة فقدت مبرّرات وجودها، بمفعول النّسخ، لأنّها استجابت لفترة من فترات نموّ العقل في تاريخ الإنسانيّة[٣].

والّذي نخلص إليه هو الاستغراب ممّا كرّسه القائمون على الوعي الدّيني عبر الأزمنة المختلفة، فإذا كانت أمّيّة المجتمع الّذي تنزّل في إطاره الوحي يكشف عن بدائيّة العقل البشري الّذي يستند إلى التّجسيد وضرب الأمثلة المادية و المحسوسة كالشّجرة الّتي ترمز إلى الحرام، ولا شجرة، وكالسّؤال عمّا تأكل الملائكة في الخبر المُشار إليه آنفا، فإنّ الّذي

(٣) وكمثال على ما تُثيره هذه المرويّات من تعميق للنّزعة التّجسيديّة نورد نموذجا ورد عن وهب بن منبّه المتمثّل في روايته التّالية: أنّه لمّا أسكن الله آدم وذرّيته، أو زوجته الجنّة ونهاه عن أكل الشّجرة وكانت شجرة غصونها متشعّبة بعضها في بعض، وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلودهم وهي الثّمرة الّتي نهى الله آدم عنها وزوجته، فلمّا أراد إبليس أن يستزلّهما دخل في جوف حيّة وكانت للحيّة أربع قوائم كأنّها بختيّة من أحسن دابّة خلقها الله. فلمّا دخلت الحيّة الجنّة خرج من جوفها إبليس فأخذ من الشّجرة الّتي نهى الله عنها آدم وزوجته، فجاء بها إلى حوّاء، فقال: انظري إلى هذه الشّجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها، فأخذت حوّاء فأكلت منها، ثمّ ذهبت بها إلى آدم، فقالت: أُنظر إلى هذه الشّجرة ما أطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها فأكل منها آدم فبدت لهما سوءاتهما، فدخل آدم في جوف الشّجرة، فناداه ربّه: يا آدم أين أنت؟. قال: أنا هذا يا ربُّ، قال: أ لا تخرج، قال: أستحي منك يا ربّ، قال: ملعونة الأرض الّتي خُلقت منها لعنة يتحوّل ثمرها شوكا، قال: ولم يكن في الجنّة ولا في الأرض شجرة كان أفضل من الطّلح والسّدر، ثمّ قال: يا حوّاء أنتِ الّتي غررت عبدي فإنّك لا تحملين حملا إلاّ حملته كرها، فإذا أردت أن تضعي ما في بطنك أشرفتِ على الموت مرارا، وقال للحيّة: أنت الّتي دخل الملعون في جوفك حتّى غرّ عبدي، ملعونة أنتِ لعنة تتحوّل قوائمك في بطنكِ، ولا يكن لكِ رزق إلاّ التّراب، أنت عدوّة بني آدم وهم أعداؤكِ حيث لقيتِ أحدا منهم أخذتِ بعقبه وحيث لقيك شدخ رأسكِ، قال عمر: قيل لوهب: وما كانت الملائكة تأكل؟. قال: يفعل الله ما يشاء. الطّبري، جامع البيان، مج١، تحقيق البكري أحمد عبد الرّزاق وخلف محمّد عبد اللّطيف وعبد الحميد محمود مرسي ومحمّد محمّد عادل، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد المنعم المدكور، مصر، دار السّلام، ط ٢، ٢٠٠٧، ص ص٣٤٢-٣٤٣.

يثير الأسئلة المتزايدة هو اعتبار المتأخّرين أنّ هذه الرّوايات الأسطوريّة جزء من الدّين وأنّها مداخل من شأنها أن تنتج المعاني القرآنيّة وأن توضحها، وبذلك تتحوّل الأمّيّة من ظاهرة ظرفيّة إلى سمة مؤبّدة تلازم الوعي الدّيني وتطبع الفكر الإسلامي رغم اختلاف الأزمنة والأُطر المعرفيّة المستجدّة.

مبرّرات التسرّب:

لقد تسرّبت المرويّات الّتي اُصطلح على تسميتهـــــا بالإسرائيليّات لغاية التّوضيح المتعلّق ببعض الآيات المتضمّنة للتّرميز والتّعميم ممّا جعلها تحتاج إلى تفصيل. ولمّا كان العرب غير أصحـاب كتاب و هو المعنى المراد من الأمّيّة فإنّ اليهود والنّصارى قد وجدوا هذه السّمة في بعض الآيات مدخلا مناسبا لإطلاق العنـــان لتسريب روايات مفصّلة تبيّن الغامض وتدقّق العمـوم. وانتعشت هذه الرّوايات إزاء ضعف حركة التصدّي لها، "بل على العكس من ذلك روّج البعض لها وانتشرت على ألسنة النّاس وتلقّوها بالقبول وفُتنوا بها وعملوا على ترويجها"[٤].

إنّ الإسرائيليّات تعني تلوين الأفكار بروايات اليهود والنّصارى وسمّيت بالإسرائيليّات لغلبة المرويّات الإسرائيليّة، واتّسع المفهوم ليشمل كلّ الأفكار الغريبة الوافدة من خارج صريح القيل القرآني "وهي تشمل ما أورده اليهود من تزيّدات من كثرة ترحالهم شرقا وغربا ببابل ومصر"[٥].

(٤) انظر رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٧٠، ص ٧.

(٥) أمين الخولي، دائرة المعارف الإسلاميّة، مج٥، مادّة التّفسير، ص ٣٥١.
وأمّا محمّد اليعلاويفيشير في مقالته «في القصص القرآني» إلى أنّ ضروب الفنّ تتلاعب بالسّرد فلم يعد خطيّا مسترسلا، بل أصبح ملتويا متعرّجا، يتراجع تارة ويقفز أخرى. انظر حوليّات الجامعة التّونسيّة، عدد٢٤، سنة١٩٨٥، ص٣٢.
وقد ورد في مقالة «قصّ» من دائرة المعارف الإسلاميّة أنّ القصّاصين لا يتحرّجون من ذكر الأحاديث محرّفة من أجل تحسين قصصهم، وبذلك يساهمون في نشر الخرافة والحكايات العجيبة، فتتلقّفها العامّة على أنّها أخبار حقيقيّة:
Encyclopédie De L›Islam، nouvelle édition، Tome IV، Charles Pellat، article Kâss، p 764

تنقسم الإسرائيليّات على الأنواع التّالية:

النّوع الأوّل هو صحيح السّند والمتن. وهذا النّوع يمكن الأخذ به. والنّوع الثّاني هو ضعيف السّند أو المتن، وفيها أساطير لا يقبلها العقل حيكت حول بعض الإشارات الواردة في القرآن مثل هاروت وماروت. والنّوع الثّالث يتمثّل في الأخبار الموضوعة. وهذا النّوع ظاهر التّكلّف ينهض على حكايات تطنب في التّفاصيل والمبالغات مثل الحديث المطوّل حول أصناف الجواهر والحجارة الكريمة الّتي اُعتمدت في بناء بيت المقدس. وهذا النّوع شديد الاتّصال بالعقائد كالإطالة في وصف الله وتجسيده كذكر الأعضاء المتمثّلة في اليد والأصابع، وقد تتعدّى الإسرائيليّات العقيدة لتطال الأحكام كالّذي قيل حول الرّجم. ولمّا كان رجال النّصارى واليهود مطلعين على ما ورد في كتبهم فانهم لما أسلموا لونَوا المعاني القرآنية بما علق في أذهانهم من هذه الكتب. فأحاديثهم تتقاطع مع بعض الإشارات القرآنيّة أحيانا وتفارقها أحيانا أخرى، وهذه الطّريقة تجعل الحكاية مقبولة من الضّمير الإسلامي، ومن هذه الحكايات ما يبالغ في الوضع فيجعلها مخالفة لمعاني القرآن كقصّة جرادة مع سليمان والشّيطان. ومن براعة هذه القصص أنّها تتوسّط بين القبول والإنكار لانعدام الأدلّة على هذا وذاك كقصّة البعوضة في رأس النّمرود. وعموما «فإنّ أقسام الإسرائيليّات لا تندّ عن المقبول والمرفوض ومتوقّف فيه»[٦].

والمهمّ في هذا المجال هو السّؤال التّالي: هل أنّ هذه الأخبار توضّح المعنى أم تتحوّل إلى حجاب تحول دون فهم الكتاب؟.

لم تسلم كتب التّفسير على بكرة أبيها من هذه الظّاهرة إن بنسبة قليلة أو كبيرة، فقد اعتمد التّابعون على جُملة آراء تتعلّق بالتّفسير من الرّسول والصّحابة وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب وما جاء في

Encyclopédie de l'Islam، nouvelle édition، Tome IV، A. Rippin، Article TAFSĪR، p 91

(٦) انظر رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، دار القلم، دمشق، ط. ١، ١٩٧٠، ص ٨٥.

كتبهم.[٧] ثمّ إنّ القصّاص قد تفنّنوا في التّزيّد والوضع[٨] مستغلّين في ذلك النّمط الثّقافيّ السّائد القائم على المشافهة، فاختلط الحابل بالنّابل في كتب التّابعين «لكثرة ما أخذوه عن الّذين دخلوا الإسلام من الملل السّابقة لنزول الإسلام ككعب الأحبار ووهب بن منبّه وابن جريج والسّدي ومحمّد بن إسحاق وغيره»[٩].

ولمّا ورد التّفسير، في أوّل العهد، جزءا من كتب الأحاديث والأخبار التي لم تدوّن إلا في زمن متأخر نسبيا فإنّ امتزاجه بالإسرائيليّات كان أمرا سهلا وميسورا. وقد أشار السّيوطي إلى هذا الالتباس بقوله:«خلائق اختصروا الأسانيد الّتي تُرفع فيها المرويّات إلى الأئمّة ونقلوا الأقوال تترى، فدخل من هنا الدّخيل والتبس الصّحيح بالعليل ثمّ صار كلّ من يصحّ له قول يورده ومن يخطر بباله شيء

(٧) م. ن، ص ١٨.

(٨) وقد ورد في تحذير الخواصّ من أكاذيب القُصّاص للسّيوطي، تحقيق وتعليق محمّد بن لطفي الصّبّاغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٤، ص١٨٩، أنّ ابن حبّان قال: «لَعَلَّ الكَدِيمِي قَدْ وَضَعَ أَكْثَرَ مِنْ أَلْفِ حَدِيثٍ». وعن أبي الوليد الطّيالسي قال: كنتُ مع شعبة، فدنا منه شابّ، فسأله عن حديث. فقال له: أقاصّ أنت؟. قال: نعم. قال: اذهب، فإنّا لا نحدّث القُصّاص. فقلت له: لم يا أبا بسطام؟!. قال: يأخذون الحديث منّا شبرا فيجعلونه ذراعا. م. ن، ص ٢٧٦ -٢٧٧، ولهؤلاء القصّاص قدرة على توظيف المعاني القرآنيّة بحسب المقام الّذي يكونون فيه، من ذلك أنّ ابن عدي عن الحسين الكرابيسي قال: كان ببغداد قاصّ يقال له أبو مرحوم الحجّام يجتمع النّاس إليه، فقال يوما: سلوني عن التّفسير وتفسير التّفسير. فقام رجل من وراء الدّرابزين فقال: يا أبا مرحوم أصلحك الله. فقال: طعنة يا ابن الفاعلة!. فقال له: رجل دعا لك ثمّ تقول له مثل هذه المقالة؟. فقال: نعم!. ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. م. ن، ص٢٧٩. وقد أورد بشير بن سعيد أنّه يقول: اتّقوا الله وتحفّظوا من الحديث فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة، فيحدّث عن رسول الله ويحدّثنا عن كعب الأحبار ثمّ يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله عن كعب وحديث كعب عن رسول الله ﷺ. انظر ابن كثير، البداية والنّهاية، ج٨، ط١، مطبعة كردستان العلميّة، ١٣٤٨هـ، ص ١٠٩ وسير أعلام النّبلاء، ج٣، ص ٤٣٦.

(٩) محمّد حسين الذّهبي، التّفسير والمفسّرون، مج١، دار القلم، بيروت، ط١، د. ت، ص٢١٦.

يعتمده، ثمّ ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظانّا أنّ له أصلا غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السّلف الصّالح ومن يُرجع إليهم في التّفسير»[١٠].

والّذي زاد الطّين بلّة والعليل علّة هو احتدام الصّراع المذهبي بين الفرق فطغى التّزيّد على الرّسول فاجتُرحت آراء أملاها المذهب ثمّ أُلصقت بالدّلالة القرآنيّة. وهذا أيضا أمر سهّل بدوره رواج الأخبار الوافدة من الثّقافات الأخرى. فكثُر الدّسّ والوضع كردّة فعل أمام السّلوك التّمييزي الّذي يفضّل العنصر العربيّ على غيره من الأجناس. والّذي تحسن الإشارة إليه هو أنّ حركة الوضع قد تجاوزت المواضيع المتعلّقة بالتّرغيب والتّرهيب في الفضائل إلى الإشادة ببعض المواضع والأماكن والأقوام والأجناس. وانظر إلى ما أشار إليه حسين أحمد أمين من أنّ أهالي الأقاليم والأمصار والمدن المفتوحة المختلفة وضعوا أحاديث تُثني على هذا الإقليم أو ذاك، وعلى أهله، أو تجعل منه الإقليم المفضّل عند الله تعالى من بين كافّة الأمصار من قبيل: «ستفتحون مصر، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، واستوصوا بقبطها خيرا، فإنّ لهم منكم صهرا وذمّة»، و «إذا فتح الله عليكم بعدي مصر فاتّخذوا فيها جندا كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض»، و «الله الله في قبط مصر، فإنّكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدّة وأعوانا في سبيل الله»[١١].

إنّ المتأمّل في قصّة الخلق، على سبيل المثال، في تفسير الطّبري وثِني العهد القديم[١٢] يجد تشابها يكاد يكون حرفيّا بين الرّوايتين. ولا غرو في ذلك، فالرّاوي الّذي قصّ الحكاية في تفسير الطّبري هو وهب بن منبّه بن كامل بن سيج أبو عبد

(١٠) جلال الدّين السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، بيروت، دار المعرفة، د. ت، ص ٢٢٦.

(١١) انظر حسين أحمد أمين، دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السّلوك في القرن العشرين، دار الشّروق، ط٢، بيروت، ١٩٨٥، ص ٥٣.

(١٢) سفر التّكوين، الإصحاح{٢}، الشّجرة المحرّمة، ١٥ -١٧ وخلق المرأة ١٨ -٢٥. الإصحاح{٣}، سقوط الإنسان ١ -١٥، وعقاب الإنسان ١٦ -١٩ وطرد الإنسان من الجنّة ٢٠ -٢٤. والطّبري، جامع البيان، مج١، ص ص٣٤٢ -٣٤٣.

الله الصّنعاني، ويقال له الذّماري نسبة لذمار في اليمن. وكان هذا الرّاوي من أبناء فارس، أصلهم من خرسان من هراة، عليما بالكتابة والكتب، فبدا بالنّسبة إلى محاوريه مطّلعا على أخبار الأوّلين خبيرا بما ورد فيها ودارسا للكتب وهو على معرفة قبْليّة بكونه يخاطب أميّين حديثي العهد بالكتاب، تتفاوت درجات تلقيهم بحسب تفاوت درجات درايتهم بالكتابة و هي تتضاءل إذا ما قيست بمعرفة أهل الكتاب بها، فقد «قامت الإسرائيليّات في الخطاب الدّيني العربي الإسلامي مقابلا للأمّيّة، "كانت بنت الكتاب فقامت في وجه اللاّكتاب"[١٣]. وقد بدا ولع هؤلاء المتلقّين الشّديد ورغبتهم المتزايدة في كنه الدّقيق من الأمور المغيوبة والغريبة، في سؤالهم إيّاه عمّا تأكل الملائكة ليملؤوا به فراغا دلاليّا في أذهانهم فاحتاجوا إلى إشباع هذه الرّغبة بمضامين قصصيّة شديدة التّفصيل لا تخلو من خوارق تغذّي الخيال أكثر ممّا تقارب الحقائق. وفي هذا الصّددِ أصاب محمّد أركون المرمى في اعتباره «أنّه في العصور الوسطى كان المخيال يتغذّى من كلّ إيحاءات اللاوعي وهو مستعدّ لتقبّل الكثير من التصورات الخارقة للطبيعة وبالتالي فقد كانت الأمور الأخرويّة وقصص البعث والنّشور والجنّة والنّار وما بعد الموت تشغل عقول الناس وتشكل مادة ثمينة لأدبيات التهييج والإثارة. كانت تمثّل أمورا واقعيّة محقّقة لا يرقى إليها الشّكّ بالنّسبة إلى الوعي القروسطي وقد كان الوعي الشّعبي يستمتع كثيرا بهذه القصص المثيرة والأحاسيس الرهيبة ويطلب المزيد منها وهي أحاسيس يختلط فيها الخوف بالخنوع والرفض بالمطالب غير المحدّدة والأمل والحاجة إلى الهروب والرّغبة الحارقة وكلّ هذه المشاعر كانت تنصهر بعضها ببعض وتشكّل الخيال العام الّذي كان يسيطر على وعي النّاس في تلك العصور رغم محاولات علم الكلام والفلسفة للتّصدي إليها بمفعول عقلانيّتها»[١٤].

(١٣) وحيد السّعفي، في الإسرائيليّات وإكساب الخطاب الدّيني العربي الإسلامي الشّرعيّة، حوليّات الجامعة التّونسيّة، عدد٥١، ج٢، سنة ٢٠٠٦، ص ٢٩٩.

(١٤) محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر

وعموما فإنّ مساءلة أهل الكتاب والأخذ عنهم إنّما ينهضان على مرتكزات ثلاثة: المرتكز الأوّل صحّة الرّواية، والثّاني موافقة ما يؤخذ عنهم للشّريعة، والثّالث طبيعة الموضوع المنقول إن كان عقديّا أو تشريعيّا[١٥]، إلّا أنّ الخطر في هذه المسألة هو أن تسير هذه النّزعة القصصيّة في شعاب مضادّة لمقاصد الملفوظ القرآني وتسوق المفسّر إلى مناقضة الآية من حيث شعر أم لم يشعر، فالخطاب القرآني، على سبيل المثال، صريح في تسويته بين آدم وحوّاء انطلاقا من الضّمير والأفعال الّتي تحمّلهما المسؤوليّة أمرا ونهيا[١٦]، وهذا المعنى القائم على التّسوية والنّديّة بين آدم وحوّاء يضيع في القصّتيْن إن في التّوراة أو في تفسير الطّبري، ليورّط حوّاء في سرعة استجابتها للخطيئة ثمّ في غوايتها لآدم، ومن ثمّ تُعمَّق النّظرة الدّونيّة للمرأة ويُشَرْعَن استغلالها باسم الدّين، فيكون التّفسير حجابا للخطاب القرآني وطمسا لمعانيه بدلا من توضيحه بمفعول التّلقي الخاطئ و بمفعول الخلط بين مستوياته.

إنّ النّاظر في الآية ٤٦ من المائدة ٥ [١٧] يرى أنّ كلّ كتاب سماويّ يصدّق الكتاب الّذي سبقه مشيرا إليه بعبارة الّذي بين يديْه، إلاّ أنّ مفسّري القرآن خلطوا المعنى الوارد في هذه الآية بالمعنى الّذي أشارت إليه الآية ٩٢ من الأنعام ٦ [١٨] لمّا استعملت العبارة نفسها، وهي «بَيْنَ يَدَيْه»، ولو كان القصد بهذه العبارة هو التّوراة كما فهموه لدعت الآية أتباع الرّسول محمّد أن يكونوا يهودا، والحال أنّ المقصود بالّذي بين يديْه هو «تفصيل الكتاب» الوارد في القرآن إلى جانب المُحكم والمتشابه. وانظر المعنى

العربي، تعريب هاشم صالح، دار الساقي، ط١، س١٩٩٧، ص٥٣١.

(١٥) انظر محمّد حسين الذّهبي، الإسرائيليّات في التّفسير والحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠، ص ٤٩ وما بعدها.

(١٦) انظر الآيتيْن ٣٥ و٣٦ من سورة البقرة ٢.

(١٧) ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

(١٨) ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾.

نفسه في الآية ٣١ من سورة فاطر[١٩] ٣٥ والآية ٩٧ من البقرة ٢ [٢٠] والآية ٣٠ من سورة الأحقاف[٢١] ٤٦.

ولئن حاول رمزي نعناعة أنّ يبرّر ذلك بأنّ الكتب السّماويّة تصدّق بعضها بعضا في أصول العقيدة وقد تتبدّل فيما يتعلّق بأشياء[٢٢] فإنّه لم ينتبه إلى تفصيل الكتاب الّذي هو جزء من المصحف الإمام بل على العكس من ذلك يؤكّد «أنّ علاقة القرآن بالكتب السّابقة هي علاقة تأييد كلّي وتصديق لما بقي منها على أصله وتصحيح لما طرأ عليها من تغيير وتبديل»[٢٣].

لقد أشار وُل ديورانت الى مصادر التّوراة بقوله: «كانت أساطير الجزيرة، ويعني ما بين دجلة والفرات، هي المعين الغزير الّذي أخذت منه التّوراة قصص الخلق والغواية والطّوفان الّتي يرجع عهدها إلى ثلاثة قرون ق. م. ولعلّ اليهود قد أخذوا بعضها من الأدب البابلي زمن أسرهم. ومن الرّاجح أنّ أخذها قبل ذلك العهد بزمن طويل من مصادر ساميّة وسومريّة قديمة كانت منتشرة في بلاد الشّرق الأدنى»[٢٤].

إنّ الغريب، فيما سلف ذكره، كامن في التّعارض الصّريح مع ما ذكره الرّسول ممّا أخرج الإمام أحمد والبزار عن جابر أنّه قال: نسخ عمر كتابا من التّوراة بالعربيّة، فجاء به النّبيّ فجعل يقرأ ووجه رسول الله يتغيّر فقال له رجل من الأنصار: ويحك يا ابن الخطّاب أما ترى وجه رسول الله ﷺ، فقال الرّسول ﷺ: لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنّهم لن يهدوكم وقد ظلّوا وإنّكم إمّا أن تكذّبوا بحقّ أو تصدّقوا

(١٩) ﴿ وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴾.

(٢٠) ﴿ قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾.

(٢١) ﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾.

(٢٢) انظر، رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، ص ٢٧.

(٢٣) م. ن، ص ٣٠.

(٢٤) وُل ديورانت، قصّة الحضارة، ترجمة بدران، مج١، ج٢، دار الجيل للنّشر والتّوزيع، بيروت، د. ت، ص ٣٦٨.

بباطل والله لو كان موسى بين أظهركم ما حلّ له إلاّ أن يتّبعني[٢٥].

وممّا يزيد في اضطراب المرويّات أنّ المسلمين يعتقدون أنّ أهل الكتاب قد حرّفوا كتابهم من جهة ويجيزون الأخذ عنهم من جهة أخر، فكيف يستسيغون الأخذ عنهم، ولاسيّما أنّ من الأخبار ما يشير إلى أنّ عمرا قد نهى كعب الأحبار عن التّحديث وتوعّده إن فعل بالنّفي إلى بلاده قائلا: «لتتركنّ الحديث عن الأوّل أو لا ألحقنّك بأرض القِردة».

إنّ قصّة المسيح الدجّال من أبرز العلامات الدّالة على أنّ هذه الرّوايات الدّخيلة من ثقافة غير إسلاميّة قد مازجتها وتماهت معها واتّخذت من نقاط التّشابه والالتقاء بينهما حجّة لاكتساب المصداقيّة[٢٦] وقد ذهب الرّسول فيما روي عنه أنّه قال: «لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء»، ولربّما بان هذا النّهي في أوّل عهد الإسلام خشية اختلاط الأمور بعضها ببعض ثمّ تطوّرت العلاقة بهذه الرّوايات وقيل إنّه نهي تنزيه لا نهي تحريم.

وقد ذهب ابن تيميّة في مقدّمة التّفسير إلى إمكانية قبول الإسرائيليّات «من باب الاستشهاد لا من باب الاعتقاد»[٢٧].

وقد فات ابن تيمية أنّه ليس من الهيّن الفصل بين هذيْن الحدّيْن، إذ أنّ كثرة الاستشهاد بالشّيء يورّث الإيمان به إلى حدّ الاعتقاد، إذ يضحى دليلا يعتمد في تحويل التّصوّرات إلى تصديقات. ويبدو أنّ اعتبار أحمد بن حنبل أنّ ثلاثة ليس لها أصول: «التّفسير والملاحم والمغازي»[٢٨]

(٢٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقّم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وتحقيقه وأشرف على طبعه: محبّ الدّين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ج١٣، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ، ص ٣٣٤.

(٢٦) تحسن العودة لمزيد توضيح هذا العنصر إلى مصطفى بوهندي في كتابه التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٤، و بالتّحديد الفصل الثالث: المسيح الدجّال، ص ص٢٢٨-٢٥٤.

(٢٧) ابن تيميّة، مقدّمة في أصول التّفسير، تحقيق عدنان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت، ط١، ١٩٧١، ص ٥٧ وما بعدها.

(٢٨) السّيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج٢، ص ٢٢٧.

ينسف جدوى رواياتها وحتّى الاستشهاد بها وإذ ركّزت هذه الرّوايات على أشياء وردت عامّة في النّصّ القرآني فإنّ التّوسّع فيها لا فائدة منه كمعرفة نوع الشّجرة الّتي كلّم الله عنها موسى أو معرفة لون كلب أهل الكهف.

والمتأمّل فيما ورد عن عبد الله بن عمر أنّ النّبيّ ﷺ قال: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»[٢٩]، يتساءل عن الاضطراب الحاصل بين حديث ينهى عن الأخذ عن أهل الكتاب وآخر يبيحه، ولا جدوى في ذلك لما يتضمّنه من اعتراف بدونيّة ما جاء به الإسلام من أنّه آية إمّا أن تنسخ الشّرائع قبله وإمّا أن تأتي بمثلها أو أحسن منها، لأنّ صاحب هذا الدّين أوّل من يدري أنّ هذه الرّوايات من شأنها أن يحدث الاضطراب في وضوح الرّؤية العقديّة وأصول الدّين الجديد.

والنّاظر إلى ما اعتُبر حديثا «بُعثت إلى أمّة أمّيّة» وكذلك «نحن أمّة أمّيّة لا نحسب ولا نكتب الشّهر هكذا وهكذا»[٣٠] يكشف بوضوح أنّ هذه الصّورة إن كانت هي الصّورة الأولى للحالة الثّقافيّة الّتي نزل فيها الوحي فما الدّاعي لتأبيدها وإخراج الإسلام هذا المخرج واعتبارها حالة قارّة فيه تلازمه وتطبع ثقافته. وانظر إلى ما ذهب إليه محمّد عزّة درّوزة، في هذا الصّدد، من أنّ «جُلّ ما رُوي عن مُسلِمة أهل الكتاب كان على صورة التّدقيق في الغوامض إنْ أجوبة على أسئلة من المسلمين عن جزئيّات الأحداث والشّخصيّات وإنْ أجوبة عن مسائل قرآنيّة. وقد كانوا يصدرون في أجوبتهم عمّا كان لديهم من الأسفار»[٣١].

(٢٩) رواه مسلم والتّرمذي والسّاقي عن أبي سعيد. وفي رواية أخرى زيادة تتمثّل في قوله: «حدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج فإنّكم لا تُحدّثون عندهم شيئا إلاّ وقد كان فيهم أعجب منه». انظر مثلا ابن كثير، البداية والنّهاية، ج١، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التّركي، دار هجر للطّباعة والنّشر، ط١، ١٩٩٧، ص ٨.

(٣٠) صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، كتاب الصّوم، باب قول النّبيّ ﷺ، «لا نكتب ولا نحسب»، حديث عدد ١٩١٣، المنصورة، مكتبة الإيمان، طبعة جديدة ومنقّحة، ٢٠٠٣، ص ٣٩٣.

(٣١) عزّة دروزة، حول الإسرائيليّات في كُتب التّفسير، مقال في مجلّة الوعي الإسلامي، الكويت، س ٢، ع١٩، ١٣٨٦ هـ.

وقد أثّرت هذه الرّوايات في تشكيل بعض العقائد وتكوين بعض الفرق كالمشبّهة الّذين قالوا: مرض الله حتّى عادته الملائكة وبكى على طوفان نوح حتّى رمدت عيناه، وإنّ العرش ليئطّ من تحته كأطيط الرّحل الجديد[٣٢].

إنّ مدخل الإسرائيليّات الأساسي هو التّفسير بالمأثور و هو المعتمد على المرويّات ولاسيّما أنّ الثّقافة كانت ناهضة على الحفظ والمشافهة. والمهمّ أنّ زعماء هذا التيّار لم يجدوا حرجا ومانعا للأخذ عن أهل الكتاب خاصّة أنّ الاتّفاق بين القرآن والتّوراة صريح الذّكر في القرآن، وقد اتّهم صاحب مذاهب التّفسير الإسلامي ابن عبّاس بالإكثار من هذا الأخذ. يقول قولدزيهر: «وأجدر من ذلك بالتّصديق للأخبار الّتي تفيد أنّ ابن عبّاس كان لا يرى غضاضة أن يرعى في الأحوال الّتي يخامره الشّكّ إلى من يرجو عنده علمها وخاصّة أبا الجلد وهو غيلان بن فروة الأزدي»[٣٣]. وهذه الفكرة عمّقها أمين الخولي فيما ذهب إليه من القول في دائرة المعارف الإسلاميّة: »إنّ ابن عبّاس يأخذ الكثير من القصص عن الّذين أسلموا مثل كعب الأحبار وعبد الله بن سلام، ويصيغها صياغة جديدة حتّى تطابق القرآن»[٣٤]. والواقع أنّ هذه المرويّات هيمنت في الأذهان على القيل القرآني وهو ما لا يستسيغه الرّسول نفسه و لا صاحب الفطرة السليمة أو العقل القويم.

والغريب أنّ بعض الرّوايات تتناقض مع ما نهى عنه الرّسول من كتابة الأحاديث. فقد جاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنّه كان يكتب كلّ ما يسمعه من الرّسول فنهاه الصّحابة عن ذلك وقالوا له: «إنّ النّبيّ يتكلّم في الغضب والرّضا فلا تكتب كلّ ما تسمع. فذكر ذلك إلى رسول الله فأومأ بإصبعه إلى ما فيه، قال:

(٣٢) الشّهرستاني، الملل والنّحل، تحقيق محمّد عبد القادر الفاضليّ، ج١، بيروت -لبنان، المكتبة العصريّة، ٢٠٠٦، ص ٨٤.

(٣٣) قولدزيهر، مذاهب التّفسير الإسلامي، تعريب النّجار عبد الحليم، مطبعة السّنة المحمّديّة، القاهرة، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م، ص ٨٥ وص٨٨.

(٣٤) دائرة المعارف الإسلاميّة، التّرجمة العربيّة، مادّة ابن عبّاس، ج١، ص ٢٠.

أُكتب فو الذّي نفسي بيده ما خرج منّي إلاّ حقّ»[٣٥]، فالملاحظ أنّ الإسرائيليّات قد تسرّبت إلى الثّقافة الإسلاميّة منذ وقت مبكّر على عهد التّنزيل لأنّ الصّحابة كانوا شديدي الحرص على التّفاصيل لولع العقل البدائي بالأمثلة التّجسيديّة وتزايدت عبر الأيّام ولوجا في التّفاسير «فاتسّع الخرق وكثر الدّخل في التّفسير حتّى آل الأمر إلى الأقوال الكثيرة، تفعل كلّ طبقة من المفسّرين كفعل التّي قبلها من زيادة الوجوه والاختيارات كما تراهم يُصرّحون به في تفاسيرهم وينسبون الأقوال إلى آرائهم ومذاهبهم»[٣٦]. ولقد رُوي أنّ كعب الأحبار وقد أسلم نفاقا لكي يخدع المسلمين ويُسهّل عليهم تصديق ما يحكيه عليهم. وقد فعل ذلك ليشوّه دينهم فيما يكذب به في الأخبار. وقد حامت حوله شكوك فيما يتعلّق بقتل عمر[٣٧]، وإن ذهب رمزي نعناعة إلى تكذيب هذه المؤامرة على عمر من كعب الأحبار[٣٨]. وقد أخبر محمّد بن الحُسيْن القطّان، أنّ أحمد بن كامل القاضي، حدّثه أبو سعد الهروي، عن أبي بكر بن خلاّد، قال: «قُلت ليحيى بن سعيد القطّان: أما تخشى أن يكون هؤلاء الّذين تركت حديثهم خصماؤك عند الله تعالى، قال: لَأن يكون هؤلاء خصمائي أحبّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ»[٣٩].

ولقد كان مقاتل بن سليمان على صلة وثيقة بخلفاء بني العبّاس، ولّما أراد أن يتقرّب منهم عرض عليهم أن يضع بعض الأحاديث، وقد قال للمهدي على سبيل المثال: «إنشئتَ وضعتُ لك أحاديث في العبّاس. فقال المهدي: لا حاجة لي

(٣٥) مسند أحمد، شرح أحمد شاكر، ج١٠، دار المعارف، مصر، ١٩٤٨، ص ص٥٠ -٥٢.

(٣٦) انظر نجم الدّين الطّوفي البغدادي، الإكسير في قواعد علم التّفسير، مخطوطة مصوّرة في المكتبة الأزهريّة نقلا عن رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، ص ١٦٥.

(٣٧) رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، ص ١٦٨. وللاستزادة من هذه المعلومات انظر رشيد رضا، مجلّة المنار، ج٩، مج٢٧، ص ٦٩٧.

(٣٨) رمزي نعناعة، م. ن، ص ١٨١.

(٣٩) الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرّواية، تحقيق أبو عبد الله السّورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلميّة، المدينة المنوّرة، د. ت، ص ٤٤.

فيها وأعرض عن الأمـر»[٤٠]، ولا غرابة في ذلك فقد اتّفق رجال الحديث على أنّ مقاتل بن سليمان وضّاع وحديثه لا شيء. وقد ذهب النّسائي إلى أنّ الوضّاعين للأحاديث عن الرّسول ﷺ أربعة: إبراهيم بن أبي يحيى بالمدينة والواقدي ببغداد ومقاتل بن سليمان بخراسان ومحمّد بن سعيد المعروف بالمصلوب بالشّام علما بأنّ مقاتلا اُشتهر بآرائه الّتي تقول بالتّشبيه والتّجسيم. قال فيه أبو حنيفة: لقد أفرط مقاتل، في إثبات التّشبيه، حتّى جعل الله مثل خلقه[٤١]. ولقد توكّأ مقاتل بن سليمان على أنّ الأحداث الدّينيّة والأخبار المتعلّقة بها لا شاهد عليها مما يسهّل تصديقها و يستبعد الأدلة على تكذيبها فقد جاءه رجل وقال له أنّ سائلا سأله عن لون كلب أصحاب الكهف، وقال: إنّه ليدْر ما يقول له: فقال له مقاتل: ألا قلتَ هو أبقع ولو قلته لم تجد أحدا يردّ عليك قولك[٤٢]. وهكذا تضافرت روايات الوضع مع روايات اُصطلح على تسميتها بالإسرائيليّات، وتحوّلت الظّاهرة من تسريبات من خارج الفضاء الإسلامي إلى إنتاج إسلاميّ من داخل الثّقافة المتعلّقة بالنّبوءة والرّسالة، وإذ وجد الّذين دخلوا الإسلام من أهل الكتاب متّكأ على الأميّة التّي تطبع العرب و تسم ثقافتهم فإنّ هؤلاء وسّعوا من دائرة الأمّيّة من حيث أرادوا الابتعاد عنها وتضييق دوائرها إن خدمة لسياسة قائمة أو فرقة ناشئة أو مذهب معتمل. فالمتأمّل، مرّة أخرى، في تفسير مقاتل بن سليمان يجده مطابقا لما ورد في التّوراة والإنجيل في مستوى تصوّرات وتفاصيل، وقد أخلد إلى الخرافة كتوسّعه في وصف الكرسي وحَملته[٤٣] ممّا يدلّ

(٤٠) انظر ابن حجر العسقلاني، تهذيب التّهذيب، ج١٠، مطبعة دائرة المعارف النّظاميّة، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ، ص ٢٨٣.

(٤١) انظر الذّهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، ج٤، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت -لبنان، ط١، ١٩٦٣، ص ص ١٧٣ -١٧٤.

(٤٢) ابن حجر العسقلاني، تهذيب التّهذيب، ج١٠، ص ٢٨٢.

(٤٣) أورد مقاتل بن سليمان في تفسيره، تحقيق عبد الله محمود شحّاتة، ج٥، دار إحياء التّراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ، ص ٢٢٢ ما يلي: «يحمل الكرسي أربعة أملاك، لكل ملك أربعة وجوه، أقدامهم تحت الصَّخرة

على عقل بدائيّ مفعم بالولع بالتّجسيد والتّمثيل دالاّ بذلك على مرحلة ابتدائيّة من تاريخ المسيرة البشريّة نحو التّعقّل البادي في القدرة على التّجريد. والمهمّ أنّ الآخذين بالإسرائيليّات لا يهتمّون بذكر الأسانيد ولا يدقّقون فيها وإنّما يكتفون، في أحسن الأحوال، بذكر كونها واردة عن وهب بن منبّه.

وإذ لا يخفى على الـدّارس صعوبة الاستـدلال على صحّة هـذه الأخبـار فإنّ الطّبري قد أحسّ بذلك وأشار إليها صراحة بقولـه: «ولا خبر بذلك تقوم به الحجّة فيجب التّسليم لها ولا هو، إذ لم يكن به خبر على ما وصفنا، ممّا يدلّ عليه بالاستدلال والمقاييس فيمثّل بغيره ويستنبط علمه من جهة الاجتهاد»[٤٤]. إلّا أنّ الطّبري ذاته قد وقع في أسر القصص الوافدة وأخبارها، كما وقعت الإشارة إليه آنفا، رغم هذا الموقف النّقدي منها. ويبدو أنّ جمعه بين التّاريخ والتّفسير هو الّذي جعله يتذبذب بين الأخذ بالإسرائيليّات ومحاولة التّصدّي لها. ولذلك لم يخف اعتذاره عن تسرّب هذا النّوع من الأخبار إلى أعماله في قوله: فما كان في كتابي هذا ويقصد التّاريخ ممّا يستنكره قارئه أو تستشنعه مسامعه من أجل أنّه لم يُعرف له وجه في الصّحّة ولا معنى في الحقيقة، فيعلم أنّه لم يُؤت ذلك من قِبلنا وإنّما أُتي من قِبل بعض ناقليه إلينا وإنّما أدّيناه على نحو ما أُدّي إلينا»[٤٥]. وبذلك يبدو أنّ الطّبري قد برّأ ذمّته من مسؤوليّة الخلط والتّخليط والجمع بين الغثّ من الأخبار والسّمين منها. وسيضحى إيراده لبعض الرّوايات وإن بدت غريبة إنّما هو من باب

التي تحت الأرض السفلى مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل أرض مسيرة خمسمائة عام. وملك وجهه عَلَى صورة الإِنْسَان، وَهُوَ سيد الصور، وهو يسأل الله الـرزق للآدميين وملك وجهه عَـلَى صـورة سيد الأنعام- وهـو الثور -يسأل الله الـرزق للبهائم. وملك وجهه عَلَى صورة سيد الطير -وَهُوَ النسر-وهو يسأل الله الرزق للطير. وملك على صورة سيد السباع -وهو الأسد -وهو يسأل الله الرزق للسباع».

(٤٤) انظر الطّبري، جامع البيان، مج٣، دار المعارف، ١٩٥٧، ص ٦٤.

(٤٥) الطّبري، تاريخ الملوك والأمـم، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، ج١، ط٢، دار المعارف، ١٩٦٧، ص ص ٧ -٨.

الصّدق والنّزاهة والموضوعيّة العلميّة.

وأمّـا ابـن كـثير فـلا يخـفي موقفه المستغرب مـن بعض هـذه الـرّوايـات كتعليقه على خبر أورده وهب بن منبّه في قصّة العصا الّتي تحوّلت إلى ثعبان في الآية ١٠٧ من سورة الأعراف إذ يقول: »هو قول فيه غرابة، والله أعلم«(٤٦). إلّا أنّ الأمـر الّـذي لا يُستساغ بسهولة هو إيراد هذه الحكايات ثني العمل التّفسيري المتعلّق بكتاب الله رغم الاعتراف بغرابتها وعدم مطابقتها للمعقول الدّيني(٤٧) في زمـن حقّق فيه العقل البشري قفزات نوعيّة في مستوى العلم والمعـارف عبر مناهج علميّة مستحدثة وإن لم تغيّر هذه الطّفرات العلميّة شيئا من عقول القائمين على الشّأن الدّيني، إذ لم تهبّ ريحها على ما يُنتجون من أنماط تفكير متحجّرة تكتفي بالاجترار وتستشهد بأخبار عجيبة وغريبة رغم إقرارهم أنّهـا إسرائيليّات ممّا حدا برمزي نعناعة إلى اعتبار أنّ: «هذا الضرب من القصص مازال يفعل فعله في تشكّل الوعي الإسلامي عند العديد من النّاس. وكان من الأولى حسب رأيه بالمفسّرين ألاّ يشتغلوا بها وقد آن لهم أن يُطهّروا كُتبهم وعقولهم من هذه الخـرافـات»(٤٨). و إذ نبدي تحفظا إزاء امكانية تحقيق النزعة الطهورية لثقافة من الثقافات كي تصبح نقيـــة صافية من الشوائب و الدواخل لأن الوشائج بين الثقافات التي ينتجها العقل البشري عديدة و متشعبة الروابط فإن الذي نخلص إليه مما تقدّم هو الخلط البادي في عدم التمييز بين مستويات تلقّي الخطاب الالهي من جهة و البشري من جهة أخرى و من ثم تمّ الاستدلال على

(٤٦) ابـن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج٢، الإسكندريّة، المكتب الجامعي الحديث، د. ت، ص ٢٧١.

(٤٧) انظر قصة موسى مع فرعون في تفسير القرآن العظيم لابن كثير، و حكاية خاتم سليمان و قصّة يـأجـوج ومـأجـوج عند الطّبري. الطّبري، جامع البيان، مج٧، ص ص٥٤٢١ -٥٤٢٢. وكذلك قصّة أهل الكهف وذئب يوسف في تفسير الثّعلبي حيث تتكلّم البهائم وتفهمها يقوله الرّاعي مثل الكلب والذّئب. الثّعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق الإمام أبي محمّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير السّاعدي، ج١٠، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢، ص ٥١.

(٤٨) رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، ص ٢٦٥.

العقيدة بما ليس منها و على الايمان بما لا يميت إليه بصلة و لربما طال ذلك الأحكام و منه تتجلى خطورة الإسرائيليات الثقافية قدر تجلي خطرها.

لقد ظلّ العمل النّقدي المتعلّق بالإسرائيليّات رهين منهج المحدّثين المتمثّل في فحص الأسانيد والتّدقيق في جرح الرّواة وعدالتهم. وإذ تسرّبت الأخبار المتهافتة[٤٩] في ضوء هذا المنهج فمعنى ذلك أنّه غير دقيق ممّا يستدعي المزيد من مراجعته أو استبداله بالكلّيّة بمنهج آخر من قبيل التّمييز بين موقع النّبوءة وموقع الرّسالة في شخص خاتم النّبيئين علما بأنّ محمّداﷺ مجتهد في النبوءة معصوم في الرّسالة[٥٠].

(٤٩) رُوي الكثير من الأخبار حول الدّابّة المذكورة في القرآن ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[سورة النّمل: ٨٢]. نذكر منها أنّها دابّة ليس لها ذنب ولكن لها لحية، وروى ابن جريج قال: "رأسها رأس الثّور وعيناها عين خنزير وأذنها أذن الفيل وقرنها قرن أيل وصدرها صدر أسد ولونها لون نمر وخاصرتها خاصرة هرّ وذنبها ذنب كبش وقوائمها قوائم بعير بين كلّ مفصّلين إثنا عشر ذراعا معها عصا موسى وخاتم سليمان فلا يبقى مؤمن إلاّ نُكتته في جبهته نكتة بيضاء يضيء لها وجهه ولا يبقى كافر إلاّ نكتته بخاتم سليمان فيسوّد بها وجهه". البغوي، معالم التّفسير في تنزيل القرآن، تحقيق عبد الرّزّاق المهدي، ج٣، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ، ص ٥١٦. ومن أغرب ما قيل في هذه الدّابّة أنّها عليّ بن أبي طالب: وروى رجل، عن ابن عيينة، قال: جابر الجعفي يقول: دابة الأرض عليؓ. انظر شمس الدّين الذّهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، ج١، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط١، ١٩٦٣، ص ٣٨٤.

(٥٠) لا تفوتنا الإشارة إلى أنّ المتنصرين إلى صرامة منهج الحديث يستشهدون بأدلّة من قبيل ما أُثر عن أبي بكر وعمر وعائشةؓ أنّهم نهوا عن غرائب الأحاديث والأخبار وقالوا: لا تشوّشوا على النّاس بهذه الأحاديث لأنّه تنشأ عندهم تصوّرات باطلة كالتّجسيم والتّشبيه وغيرها من منكرات التّصوّرات والعقائد بسبب عدم فهمهم لهذه المعاني. ولمّا كان مالك بن أنس هو سليل مدرسة المدينة الآخذة بالنّقل وبالعقل. ولمّا تنكّبت الأمّة عن منهج مالك اضطرب أمرها وشاعت عندها الإسرائيليّات. انظر هشام قريسة، حول أهمّيّة المنهج المقاصدي في تصحيح الرّؤية التّشريعيّة، مقال في مجلّة الزّيتوني المجدّد، عدد٢، جويلية –أوت –سبتمبر ٢٠١٥، ص ص ٣٨–٣٩.

ولقد انتبه ابن عطيّة الأندلسي إلى قصور منهج المحدّثين في محاصرة الإسرائيليّات والحدّ منها. ونورد له قولا متعلّقا بما خاض فيه المفسّرون في تحديد هديّة بلقيس ملكة سبأ إلى النّبيّ سليمان: «أكثَرَ بعض النّاس في تفصيلها فرأيت اختصار ذلك لعدم صحّته»(٥١). وعموما فقد أكثر ابن عطيّة في تفسيره من إشارات الرّفض للإسرائيليّات من قبيل «لا تصحّ» و «هي أخبار منكرة». فالحلّ حسب رأيه هو اختصار هذه الرّوايات إلى حدّ الاستغناء عنها لما تتسبّب فيه من تبسيط الوعي الدّيني وتقريبه من الخرافة و ما تكشف عنه من ضروب التلقي الساذج. وفي هذا المجال صرّح ابن كثير بقول يتضمّن أكثر صراحة من رأي ابن عطيّة وهو: «هذا قول باطل بلا دليل وهو من أسخف الأقوال»(٥٢). وإن تعلّق هذا الرّأي بمقام مخصوص يتمثّل في تحديد معنى لفظة «تقيًّا» الواردة في سورة مريم ١٩ في الآية التّالية ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾[سورة مريم: ١٨]. وقد وقع الاختلاف بين اعتبار أنّ تقيّا رجل وبين كون العبارة صفة له.

والملاحظ أنّ الزّمخشري ذا المنزع المعتزلي نجده يسترسل أحيانا في استعراض الإسرائيليّات وهو أمر لا يُستساغ عقليّا. وانظر تفسيره للآية ٣٢ من الشّعراء، يقول: "رُوي أنّ ثعبانا ذكرا أشعر فاغرا فاه، بين لحييْه ثمانون ذراعا، وضع لحيه الأسفل في الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر، ثمّ توجّه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك"(٥٣).

إنّ الجدير بالملاحظة هو الانتباه إلى أنّ المعتزلة إذ يأخذون كأهل السنّة بهذه الأخبار المصنوعة، فذلك دليل قاطع

(٥١) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، ج١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ، ص ٣٥٠.

(٥٢) انظر ابن كثير، البداية والنّهاية، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التّركي، ج٢، دار هجر للطّباعة والنّشر والتّوزيع والإعلان، ط١، ١٩٩٧، ص٤٣٩.

(٥٣) الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، ج٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ، ص ١٣٨.

على أنّ السّنّة الثّقافيّة ذات ميسم موحّد وهـذا الميسم متحكّم في إنتاج الأفكار والتّصوّرات الموحّدة وإن جنح الزّمخشري إلى عدم الأخذ بهذه الأخبار بصفة مطلقة، إذ صرّح في بعض المواطن عن رفضه الصّريح لمثل هذه الرّوايات، كقوله: إنّ هذا ونحوه ممّا يورده أهل الحشو والجبر الّذين دينهم بهت الله وأنبيائه وأهل العدل والتّوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل[٥٤].

أمّا ابن خلدون فقد تنبّه إلى خطورة التّساهل من المفسّرين في أخذ هذه الرّوايات يقول: «وأبعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسّرون في تفسير سورة الفجر وقوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴾[٥٥]. ويبدو أنّ الّذي حمل المفسّرين على ذلك هو ما اقتضته صناعة الإعراب في لفظة ذات العماد أنّها صفة إرم وحملوا العماد على الأساطين فتعيّن أن يكون بناء ورشح لهم ذلك بقراءة ابن الزّبير بعاد إرم، بالإضافة من غير تنوين ثمّ وقفوا على تلك الحكايات الّتي هي أشبه بالأقاصيص الموضوعة الّتي هي أقرب إلى الكذب المنقولة في عداد المضحكات وإلاّ فالعماد هي عماد الخيام وإن أُريد بها الأساطين فلا بدع في وصفهم بأنّهم أهل بناء وأساطين على العموم بما أُشتهر من قوّتهم لا أنّه بناء خاصّ في مدينة معيّنة أو غيرها وإن أُضيفت كما في قراءة ابن الزّبير فعلى إضافة الفصيلة إلى القبيلة كما تقول قريش كنانة وإلياس مضر وربيعة نزار من غير ضرورة إلى هذا الحمل البعيد الّذي يجلب لتوجيهه أمثال هذه الحكايات الواهية الّتي يتنزّه كتاب الله عن مثلها لبُعدها عن الصّحّة»[٥٦].

وانظر إلى المجهود الّذي بذله أحمد شاكر في التّصدّي إلى الإسرائيليّات ثني عمله المتمثّل في تحقيق تفسير ابن كثير واختصره بمقتضى تجريده من الأسانيد والإسرائيليّات وسمّاه بعمدة التّفسير

(٥٤) الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل، ج٢، ص ٤٥٧.
(٥٥) الفجر ٨٩/ ٦ -٧.
(٥٦) ابن خلدون، المقدّمة، تعليق عبد الله محمّد درويش، ج١، دار يعرب، ط١، ٢٠٠٤، ص ٩٩.

عن الحافظ بن كثير[٥٧] باعتبار أنّ هذه الأخبار تتضمّن إطالة لا فائدة فيها فضلا عمّا تتضمّنه من طابع خرافيّ يُلحق تحريفا وتبديلا في العقائد والتّصوّرات الدّينيّة وما تقدير أنّ الرّسول قال: «بلّغوا عنّي ولو آية وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرجَ»[٥٨]، فظلّت مَعْبرا معبّدا يكتسي شرعيّة مستمدّة من توجيهات صادرة عن النّبيّ تسرّبت من خلاله هذه الرّوايات. إلاّ أنّ الأخذ بها أو الصّمت إزاءهـــا دليل على نقص هذه الرّسالة المحمّديّة الجديدة مقارنة مع اليهوديّة والنّصرانيّة. وفي هذا المجال اتّخذ القرطبي موقفا رافضا بصورة قطعيّة لهذه الأخبار فهو يقول: «الإسرائيليّات مرفوضة عن العلماء على البات، فاعرض عن سطورها بصرك واصمم عن سماعها أذنيك فإنّها لا تعطي فكرك إلاّ خيالا ولا تزيد فؤادك إلاّ خبالا»[٥٩].

وأمّا قاسم القيْسي بصفته مفتي الدّيار العراقيّة فإنّه يُعرب عن تمنّيه لو أنّ المسلمين طـهّـروا تفاسيرهم مـن هـذه الأخـبـار الزّائفة. ويشاطره في هذا الموقف الآلوسي في روح المعاني حين اعتبر أنّ جميع ما ورد فيها أمور ظنيّة لا سند يعوّل عليه لأكثرها وأنّها أخبار منكرة وكلمات مزوّرة[٦٠]. فلا غرو حين إذٍ أن يتبنى الألوسي ما ذهب إليه ابن القيّم الجوزية من رأي مفاده أن: «العجب ليس من جرأة من وضع القصّة، و كذب على الله، و إنّما العجب ممّن يُدخل هذا الحديث في كتب العلم من التفسير و غيره، و لا يُبيّن أمره. و لا ريب أن هذا و أمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء و السّخريّة بالرسل الكرام عليهم الصّلاة و السّلام»[٦١].

ثمّ إنّ لرشيد رضا في تفسيره التفاتة

(٥٧) رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، ص ٣٢٤.
(٥٨) صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث عدد ٣٤٦١، المنصورة، مكتبة الإيـمان، طبعة جديدة ومنقّحة، ٢٠٠٣، ص ٧٢٨.
(٥٩) القرطبي، التّفسير، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ج١٥، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤، ص ٢١٠.
(٦٠) الآلـوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق عليّ عبد الباري عطيّة، ج٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ، ص ٣٥٩.
(٦١) م ن، ج ٨، ص ص ٨٦ -٨٧

مهمّة وتنبيها خطيرا على آثار هذه المرويّات السّلبيّة في الوعي الدّيني السّائد، يقول: «وأمّا تلك الرّوايات الكثيرة في جوهرها ومقدارها وطولها وعرضها وكتابتها وما كُتب فيها فكلّها من الإسرائيليّات الباطلة التّي نقلها إلى المسلمين أمثال كعب الأحبار ووهب بن منبّه فاغترّ بها بعض الصّحابة والتّابعين، إن صحّت الرّواية عنهم، وقد لخّص السّيوطي منها في الدّرّ المنثور وليس منها شيء يصحّ أن يُسمّى درّة ولم يذكر الحافظ ابن كثير منها الكثير على سعة اطّلاعه، وقد اتّبع في هذا عمدته في التّفسير ابن جرير الطّبري ولكن الآلوسي ذكر بعضها من المتأخّرين تبعا لغيره»[٦٢]. وفي هذا الاتّجاه أشار أحمد أمين إلى أنّ نصيبا كثيرا من الأخبار قد دخل إلى المسلمين من كعب الأحبار ووهب بن منبّه ممّا أفسد عليهم دينهم[٦٣].

ولا أدلّ على سوء ما تخلّفه الإسرائيليّات على تناول القرآن والوقوف على معانيه ممّا نبّه إليه رشيد رضا في اعتباره أنّ من سوء حظّ المسلمين أنّ أكثر ما كُتب في التّفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السّامية. فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الإعراب وبعضها يلقّنه عنه بكثرة الرّوايات وما مُزجت به من خرافات الإسرائيليّات. والمهمّ أنّ أكثر ما رُوي في التّفسير بالمأثور مثّل حجابا على القرآن وشاغلا عن مقاصده العالية المُزكّية للأنفس المنوّرة للعقول. «إنّها روايات لا قيمة لها سندا وموضوعا»[٦٤]. فمن سوء النّظر إلى القرآن من خلال هذا المنهج أنّه منعدم الضّبط والتّحقيق ويزداد هذا المنهج ضعفا إذا علمنا أنّ الوضع يزداد تعقيدا إذا نُسب إلى كعب الأحبار أو وهب بن منبّه أو غيرهما. ولربّما تزيّد هذان الرّجلان عن أصل الرّوايات الواردة ذاتها من قبيل حديث الجسّاسة وظهور المسيح الدّجّال والمهدي المنتظر ونزول عيسى وغير

(٦٢) رشيد رضا، تفسير المنار، ج٩، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠، ص ١٦٤.

(٦٣) أحمد أمين، فجر الإسلام، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط٩، ١٩٦٤، ص ١٦١.

(٦٤) رشيد رضا، تفسير المنار، ج١، ص ١٠.

ذلك من أحاديث السّاعة وعلاماتها و يبدو أن هذه الهشاشة التي طبعت الثقافة التفسيرية و وسمت أفق التلقي من الملل السابقة هو ما دفع مصطفى بوهندي إلى اعتبار أن: «العقائد الإسرائيلية قد طبعت كتب التفسير و التراث و ما تضمنته من عقائد و مفاهيم و أفكار منحرفة مأخوذة عن الإسرائيليات، لم يكن سببه هو ما راج في المجتمع الإسلامي من هذه العقائد و الأفكار و المفاهيم فقط، و إنما يرجع و بشكل أساسي، إلى العلوم الإسلامية نفسها، و على رأسها علم التفسير، حيث ساهمت بقواعدها و أصولها و مناهجها و مصادرها و رجالاتها في رواية هذه الأخبار و الترويج لها و تزكيتها و تقديسها و رفعها إلى درجة النص النازل من السماء، بل إلى درجة تأطير النص القرآني نفسه، فلا يُفهم إلا في ضوئها»[٦٥].

الإسرائيليّات و ضرورة التّخلّص:

إن الإسرائيليات تشوه معالم التفكير الديني و تزيحه عن صفائه بغض النظّر عن الدّوافع الكامنة وراء ذلك، و تخرج التفكير الديني مخرجا ساذجا مرتبطا بحدود الزمان و المكان التي تنزّل فيها و تشدّه إليها فيظل رهينا لها غير قابل للتطوير و التجديد أو التحديث و لا عجب إذا بدا التدّين مطبوعا بطابع البداوة و البدائية و الرغبة في التجسيد و اِدعاء معرفة تفاصيل من عالم الغيب بشقيه: البرزخ حيث عذاب القبر و ما أُلف فيه و الآخرة و ما صُنّف فيها كالصراط المستقيم و الجنة و النار.

وإذا تحمّل الأوائل مسؤوليّة الخلط حين دوّنوا الإسرائيليّات دون نقد وتمحيص وخلطوا بها تفاسيرهم وأحاديثهم ظانّين أنّ لها دورا إيجابيّا في فهم العقيدة أو الشّريعة، فإنّ مسؤوليّة المتأخّرين أعظم درجة لمّا قبلوا بها، والحال أنّ الأرضيّة المعرفيّة قد تغيّرت بصورة كلّيّة. وإذا كانت مبرّرات الأخذ بها قديما هي الأمّيّة الكتابيّة فإنّ هذا المبرّر قد زال بتقدّم المعرفة والقراءة والاطّلاع على مناهج الأديان المقارنة وطرق التّناول

(٦٥) مصطفى بُوهندي، التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة للطباعة و النشر بيروت، لبنان، ط١، سنة٢٠٠٤، ص٥.

المتعلّقة بالظّاهرة الدّينيّـة. إنّ التّسلّح بالأدوات النّقديّة الفاحصة يتناقض تمام المناقضة مع الدّعوة إلى عدم تصديق أهل الكتاب ولا تكذيبهم لأنّ هذا الموقف دعوة إلى السّلبيّة إزاء ظواهر خرافيّة من الثّقافة الهزيلة الّتي تعمّق الرّؤية السّحريّة إزاء العالم. إنّها روايات لا راويا محدّدا لها، ومتون لا علاقة لها بحركة الواقع وحيويّة العقل السّليم. إنّ الأخذ بهذه المرويّات يؤبّد الأمّيّة في ثقافة أمّة تعمل جاهدة على مقاومتها ورفعها. ويبدو أنّ التّصدّي لهذه الأمّيّة المؤبّدة يتمّ بطريقتين بارزتين الأولى غير مباشرة تتمثّل في نشر الرّوح النّقديّة وإشباع النّوازع العقليّة كي تعمّ المجالات الفنيّة والثّقافيّة في مراجعة شاملة للموروث الّذي وإن استجاب لمتطلّبات ندّت في زمن مضى فإنّها ما عادت تقنع في زمن متجدّد. والثّانية مباشرة وتتجسّد في الانكباب على استخراج هذه المرويّات من كلّ مصنّف حُشي بها، وتُعنون باسمه من قبيل إسرائيليّات جامع البيان أو الكشّاف أو تفسير القرآن العظيم.

والّذي يخلص إليه الدّارس هو الغرابة ممّا كرّسه القائمون على الوعي الدّيني عبر الأزمنة المختلفة. فإذا كانت أمّيّة المجتمع الّذي تنزّل في إطاره الوحي يكشف عن بدائيّة العقل البشري الّـذي يستند إلى التّجسيد ويميل إلى الأخذ بالتّرادف في اللّغة وضرب الأمثلة كالشّجرة الّتي ترمز إلى الحـرام، ولا شجرة، فـإنّ الّـذي يثير الأسئلة المتزايدة هو اعتبار المتأخّرين أنّ هذه الرّوايات الأسطوريّة جزء من الدّين وأنّها مداخل صالحة من شأنها أن توضّح المعاني القرآنيّة، وبذلك تتحوّل الأمّيّة من ظاهرة ظرفيّة اقتضتها الملابسات الثّقافيّة والاجتماعيّة الحافّة بالتّنزيل إلى سمة مؤبّدة تلازم الوعي الدّيني وتطبع الفكر الإسلامي رغم اختلاف الأزمنة والأُطر المعرفيّة المستجدّة.

لقد أسّـس الشّافعي مقولة النّسخ وعمّق الفكرة المتمثّلة في أنّ الوحي الثّاني الوارد في السّنّة بإمكانه أن ينسخ الوحي الأوّل المتمثّل في القـرآن. وهـذا الخلط دعا محمّد الغزالي إلى القول: والزّعم بأنّ ١٢٠ آية من آيات التّنزيل الحكيم نُسخت بآية السّيف، حماقة غريبة دلّـت على أنّ

الجماهير المسلمة في أيّام التّخلّف العقلي والعلمي من حضارتنا جهلوا القرآن ونسوا بهذا الجهل كيف يدعون إلى الله، ولعلّ من أسباب فشل الدّعوة الإسلاميّة في أداء رسالتها الظنّ بأنّ السّيف هو الّذي يؤدّي واجب التّبليغ وهذا باطل باتّفاق العقلاء(٦٦).

وإذا كانت القصص في القرآن تستهدف أخذ العبرة لتوسيع التّجارب والاستئناس بأحداث مضت فإنّ قصّة أهل الكهف -مثلا -تكشف بوضوح أنّ الوعي الدّيني لدى المسلمين الّذي يتخبّط في أزمةوهي أزمة تلقّ بامتياز وهو ما يتجلّى في المستويات التّالية: المستوى الأوّل يدعو الخطاب القرآني من خلال هذه القصّة إلى نبذ القياس على نموذج ثقافيّ سابق. ولو كان القياس حلاّ للقضايا الطّارئة لقاس أهل الكهف عندما تمّ بعثهم على ما كانوا عليه قبل نومهم. والمستوى الثّاني يتجلّى في بساطة العقل العربي زمن التّنزيل وعدم قدرته على التّجريد جعلا منه عقلا ساذجا يتلقّى الأخبار الخرافيّة من خارج القرآن لفهم القرآن. والمستوى الثّالث يتجلّى في ملازمة هذه الصّفة للثّقافة الإسلاميّة رغم تغيّر الأزمنة فأضحى ما قاله بعض الفقهاء والاصوليين جزءا من الدّين فتلقّته الأجيال المتعاقبة بكلّ وثوق ويقين فأضحى المتديّن في الزّمن المتأخّر لا يعدو أكثر من ماسح لغبار عارق بأحذية المتقدّمين.

لقد دشّن المسلمون الأوائل بتلقّيهم السّلبي الأخبار الّتي تسرّبت إليهم من الثّقافات السّابقة أزمة تلقّ لأنّهم كانوا أهل فصاحة وبلاغة وكان من المنتظر أن يتفاعلوا بإيجابيّة كبيرة مع الخطاب القرآني ولكنّهم انساقوا وراء القصّاصين بالتّصديق ولربّما أغراهم بذلك ما تضمّنه القرآن ذاته من قصص غير قليلة إذ لا يكاد يخلو نبيّ ولا رسول من قصّة مع قومه. ولقد تعاظمت هذه الأزمة العليقة بطبيعة التلقّي العربي للثّقافات القديمة بما قنّنه الشّافعي في رسالته من أصول تشريعيّة. والعنصر المهمّ فيما نحن فيه بسبيل هو الأساس التّشريعيّ المتمثّل في القياس.

(٦٦) محمّد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، ص ص ٨٢ -٨٣.

لقد بات الوعي الدّيني رهين هذا العنصر شديد الارتباط بالفترة الإسلاميّة الأولى يقيس المسلم المتأخّر في الزّمان بمقتضاه ما طرأ من مستجدّات في حياة النّاس على ما ندّ في سياقات اجتماعيّة شهدت نزول الوحي فظلّ المتلقّي للأفكار الدّينيّة النّابعة من القرآن في الحاضر أمام استنساخ للفترة الأولى فتأبّدت بذلك مرّة أخرى أميّة المجتمع الّذي شهد الظّاهرة القرآنيّة لأوّل مرّة. فلا غرو حينئذ أن يُقدّم الإسلام في القرن الحادي والعشرين على صورته الأولى البدائيّة البدويّة على أنّه الصّورة النّموذجيّة للإسلام.

روى الطّبراني في المعجم الكبير عن معاذ بن حنبل أنّ رسول الله قال: «إذا ذُهب بي فعليكم بكتاب الله أحلّوا حلاله وحرّموا حرامه». يمثّل هذا المتن جذرا مشتركا بين أغلب الفرق والمذاهب أضاف إليه الحاكم عبارة وسنّة نبيّ وأضاف إليه الإمام أحمد عبارة وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين وهو علم بالغيب وأضاف إليه الشّيعة أهل بيتي وأضاف التّرمذي وعترة أهل بيتي، فأضحى المعيار الّذي يُميّز به المسلم عن غيره سياسيّا أو دمويّا أو مذهبيّا بدلا من التّقوى والرّابطة الدّينيّة. إنّ هذه التّحريفات والتّزيّد ولاسيّما باسم السّنّة القوليّة قد جعل الدّارس أمام إسلام تاريخي لا بإزاء تاريخ الإسلام.

«لقد كان من السّهل في القرون الهجريّة الأولى أن تنتشر الأخبار الهزيلة المعاني وأن تشيع وأن لا نجد من يستنكرها من بين سامعيه باعتبار أنّ الأرضيّة المعرفيّة السّائدة آنذاك مازالت تؤمن بشكل الأرض المسطّح وأنّ نهاية الأرض اليابسة في جبل قاف حيث يقوم درج طويل يصعد عليه الأموات إلى الملكوت الأعلى وأنّ نهاية البحر تمتدّ خلف بحر الظّلمات وأنّ مضيق جبل طارق هو آخر المعمورة وأنّ مجاهل الكون مجال خصب لنسج الكثير من الخرافات ولكنّ الأرضيّة المعرفيّة قد تغيّرت بمقتضى التّقدّم العلمي والرّحلات والتّجارب، فلا داعي حينئذ لاستمرار خرافات تسيطر على الوعي الدّيني»[٦٧].

(٦٧) محمّد شحرور، تجفيف منابع الإرهاب، الفصل السّابع، مقاصد الشّريعة، ص٦٨٠.

إن الإسرائيليات التي تعود المفسّرون أن يحشوا بها كتبهم على حدّ عبارة التهامي نقرة[٦٨] يحيل على ملاحظة أن الوعي الدّيني الّذي شكّلته هذه الخرافات مليء بالمصادرات الّتي من شأنها اغتيال العقل، وفي أحسن الأحوال تكبيله وتدجينه بمفعول التّقليد والانشداد إلى تجارب وأفهام تاريخيّة. و إذا أُتهم بعض الصحابة بالتدليس في الحديث و من بينهم أبو هريرة[٦٩]. فإن الرواية عن كعب الأحبار أو غيره من أهل الكتاب و دلس هذا الكتابي ولو كان قد أسلم فإن ما يترتب عن هذا التدليس هو تمرير عقائد و مفاهيم أهل الكتاب منسوبة إلى الصحابة، بل و مرفوعة إلى النبي، مما يجعل كثيرين يعتقدون أنها من الوحي النازل من السماء، و الحقيقة خلاف ذلك فهي مما قرأه أهل الكتاب في توراتهم و أناجيلهم و كانوا يُقرِئونه لأهل الإسلام باللغة العربية. و هو مدخل خطير للإسرائيليات يجب التأمل فيه[٧٠].

خاتمة:

إنّ المتأمل في أوضاع الثّقافة العربيّة الإسلاميّة يقف على أمور كثيرة تستفزّه من أبرزها اختلاط العجيب بالمعقول والضّعيف من الرّوايات بصحيحها، ممّا يتسبّب في إحداث تناقض بين القيل القرآني من جهة وما تحتوي عليه هذه الأخبار والمرويّات من أفكار ساذجة من جهة أخرى. ولا غرو في ذلك ما دامت الثّقافة السّائدة تتّسم بطابع الشّفويّة، وقد نزل الوحي مشافهة مجاراة لهذه السّمة الثّقافيّة فعمّق هذه السّمة. وإذا كان الله قد تكفّل بحفظ الذّكر فإنّ ما دون ذلك قد خالطه الرّواة وأصحاب المغازي والقصّاصون بما وضعوه من قصص وخرافات، وقد

shahrour. org / wp -content / gallery / Books / book5. pdf

(٦٨) التهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، طبعة مزيدة و منقحة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢، سنة١٩٨٧، ص٣٤.

(٦٩) انظر شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج٢، مؤسسة الرسالة، ط٧سنة١٩٩٠، ص ٦٠٢

(٧٠) مصطفى بوهندي، التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط١، سنة٢٠٠٤، ص ص١٩٣ -١٩٤.

وجد الكتابيّون منهم منفذا يتمثّل في انتماء المتلقّين إلى أمّة أميّة لا كتاب لها خاصّ فكان التّلقّي السّلبي المتجلّي في الاندهاش والانبهار.

ولئن بُـرّر هـذا الـنّـوع مـن التّلقي بمقتضى السقف المعرفي الّذي كان سائدا آنذاك، فإنّ الّذي لا يجد الدّارس تبريرا له هو استمرارية هذا الاندهاش والانبهار بمقتضى تصديقها والاعتقاد فيما تضمناه من أفكار خارقة في زمن حقّق فيه العقل البشري ثورات هائلة في مستوى الوعي المنهجي كما في مستوى الحقائق العلميّة والمعرفيّة.

إنّ تنقية الأجـواء الثّقافيّة من آثار التّلقّي السّلبي ليست بالعمليّة الهيّنة لأنّها تستوجب حركة تنويريّة شاملة ترفع من مستوى الوعي الدّيني إلى درجة تضمن تحـرّرا من الخـرافـات والأوهـام وهـو ما يتطلّب جهودا جماعية وزمنا طويلا.

قائمة المصادر:

- أحمد ابن حنبل، مسند أحمد، شرح أحمد شاكر، دار المعارف، مصر، ١٩٤٨.
- ابن تيميّة، مقدّمة في أصول التّفسير، تحقيق عـدنـان زرزور، دار القرآن الكريم، الكويت، ط١، ١٩٧١.

ابن حجر العسقلاني:

- تهذيب التّهذيب، مطبعة دائرة المعارف النّظاميّة، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري، رقّـم كتبه وأبـوابـه وأحاديثه: محمّد فؤاد عبد الباقي، تحقيق محبّ الدّين الخـطـيـب، دار المـعـرفـة، بـيـروت، ١٣٧٩هـ.
- ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ج٤، المطبعة الأدبيّة، ط١، مصر، ١٣١٧هـ.
- ابن خلدون، المقدّمة، تعليق عبد الله محمّد درويش، ج١، دار يعرب، ط١، ٢٠٠٤.
- ابن عطيّة، المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، ج١، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

ابن كثير:

- البداية والنّهاية، مطبعة كردستان العلميّة، ط١، ١٣٤٨هـ.

- تفسير القرآن العظيم، الإسكندريّة، المكتب الجامعي الحديث، د. ت.
- الآلوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسّبع المثاني، تحقيق عليّ عبد الباري عطيّة، ج٣، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
- البخاري، صحيح البخاري، تحقيق طه عبد الرّؤوف سعد، المنصورة، مكتبة الإيمان، طبعة جديدة ومنقّحة، ٢٠٠٣.
- الثّعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق الإمام أبي محمّد بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير السّاعدي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢.

جلال الدّين السّيوطي:

- الإتقان في علوم القرآن، بيروت، دار المعرفة، د. ت.
- تحذير الخواص من أكاذيب القصاص، تحقيق و تعليق محمد بن لطفي الصباغ، بيروت، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٤.
- الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرّواية، تحقيق أبو عبد الله السّورقي وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلميّة، المدينة المنوّرة، د. ت.
- الذّهبي، ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٦٣.
- الزّمخشري، الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٧هـ
- سفر التّكوين، الإصحاح {٢}، الشّجرة المحرّمة، ١٥ -١٧ وخلق المرأة ١٨ -٢٥. الإصحاح {٣}، سقوط الإنسان ١ -١٥، وعقاب الإنسان ١٦ -١٩ وطرد الإنسان من الجنّة ٢٠ -٢٤.
- الشّافعي، الأمّ، دار المعرفة، بيروت، ١٩٩٠.

شمس الدّين الذّهبي:

- ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق عليّ محمّد البجاوي، ج١، دار المعرفة للطّباعة والنّشر، بيروت، ط١،

١٩٦٣.
- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط٧، سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م
- الشّهرستاني، الملل والنّحل، تحقيق محمّد عبد القادر الفاضليّ، بيروت- لبنان، المكتبة العصريّة، ٢٠٠٦.
- القرطبي، التّفسير، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٤.

محمد بن جرير الطّبري:

- تاريخ الملوك والأمم، تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧.
- جامع البيان، مج١، تحقيق البكري أحمد عبد الرّزاق وخلف محمّد عبد اللّطيف وعبد الحميد محمود مرسي ومحمّد محمّد عادل، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد المنعم المدكور، مصر، دار السّلام، ط ٢، ٢٠٠٧
- مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل، تحقيق عبد الله محمود شحّاتة، دار إحياء التّراث، بيروت، ط١، ١٤٢٣ه
- نجم الدّين الطّوفي البغدادي، الإكسير في قواعد علم التّفسير، مخطوطة مصوّرة في المكتبة الأزهريّة.

المراجع:

- أحمد أمين، فجر الإسلام، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة، ط٩، ١٩٦٤.
- التّهامي نقرة، سيكولوجية القصة في القرآن، طبعة مزيدة و منقحة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ط٢، ١٩٨٧.
- حسين أحمد أمين، دليل المسلم الحزين إلى مقتضى السّلوك في القرن العشرين، دار الشّروق، ط٢، بيروت، ١٩٨٥.
- رشيد رضا، تفسير المنار، ج٩، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٠.
- رمزي نعناعة، الإسرائيليّات، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٧٠.
- قولدزيهر، مذاهب التّفسير الإسلامي، تعريب النّجار عبد الحليم، مطبعة السّنة المحمّديّة، القاهرة، ١٣٧٤ هـ/ ١٩٥٥ م.
- محمد أركون، نزعة الأنسنة في الفكر

العربي، تعريب هاشم صالح، دار الساقي، ط١، ١٩٩٧.

- محمّد اليعلاوي، في القصص القرآني، مقال في حوليّات الجامعة التّونسيّة، عدد٢٤، سنة١٩٨٥

محمّد حسين الذّهبي:

- الإسرائيليّات في التّفسير والحديث، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، ١٩٩٠.
- التفسير و المفسرون، دار القلم، بيروت، ط١، د. ت.
- محمّد شحرور، الكتاب والقرآن، الأهالي للطّباعة والنّشر والتّوزيع، دمشق، د ت.
- محمّد عزّة دروزة، حول الإسرائيليّات في كُتب التّفسير، مقال في مجلّة الوعي الإسلامي، الكويت، س ٢، ع١٩، ١٣٨٦ هـ.
- مصطفى بُوهندي، التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة للطباعة والنشر، لبنان، ط١، سنة٢٠٠٤
- هشام قريسة، حول أهمّيّة المنهج المقاصدي في تصحيح الرّؤية التّشريعيّة، مقال في مجلّة الزّيتوني المجدّد، عدد٢، جويلية -سبتمبر ٢٠١٥.

وحيد السّعفي:

- في الإسرائيليّات وإكساب الخطاب الدّيني العربي الإسلامي الشّرعيّة، حوليّات الجامعة التّونسيّة، عدد٥١، ج٢، ٢٠٠٦.
- في قراءة الخطاب الدّيني، نجمة الدّراسات والنّشر والتّوزيع، تونس، ٢٠٠٨.
- وُل ديورانت، قصّة الحضارة، ترجمة بدران، مج١، ج٢، دار الجيل للنّشر والتّوزيع، بيروت، د. ت.
- Encyclopédie De L)Islam، nouvelle édition، Tome IV، Charles Pellat، article Kâss.
- Encyclopédie de l’Islam، nouvelle édition، Tome IV، A. Rippin، Article TAFSĪR.